

أسباب النزول بين التساهل والظعن

جامعة نواكشوط موريتانيا

د/ الشيخ التجاني أحمدي

Abstract :

The article invites to follow the historical path of this science, and stand on the origins and sources, to find out the motive behind undone and challenged, studies confirmed that the reason for the appeal is due to the indulgence of authors and those who copy the narrating from companions, the lack of tuning term restraint strictly prevents the entry of other, has led to this indulgence not to trust many of the scientists, and challenged by new Arab modernists

الملخص:

يقوم المقال بتتبع المسار التاريخي لهذا العلم، والوقوف على أصوله ومصادره، وذلك لمعرفة الدافع وراء نقضه والظعن فيه، وقد أكدت الدراسة أن سبب الظعن فيه ناشئ عن تساهل المؤلفين فيه والناقلين له من الصحابة في الرواية، وكذلك عدم ضبط المصطلح ضبطاً صارماً يمنع دخول غيره فيه، أو خروج ما هو فيه عنه، وقد أدى هذا التساهل إلى عدم وثوق كثير من العلماء فيه، والظعن فيه من قبل الحدائين العرب الجدد.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم على نبيه الكريم

تمهيد:

يتحدث الحداثيون عن حقيقة أسباب النزول باعتبارها مصطنعة وغير حقيقة، ويطعنون في صدقية الروايات التي رويت في شأنها، فهي -عندهم- إنما وجدت لغايات تسويقية استدعت من أصحابها تلفيقها وإنشائها، ومن ثم تقديمها على أنها أسباب لنزول الآيات، لتسويق الحكم الذي يميل إليه، كما يتهمون الفقهاء بالوقوف وراء تأليفها وتزويرها بأسانيد وروايات منتقاة حتى يصدقها المتلقي، ويرصدون مظاهر عدة لهذه المزاعم، بعضها يتصل بالثقافة السائدة أيام المؤلفين الأوائل لهذا العلم، إضافة إلى أخرى معرفية وإيديولوجية، وهم في ذلك يتجاهلون المصادقية التي بنى عليها المسلمون علومهم، وشيدوها بالصدق ومحاربة الكذب والتدليس.

على أن أصحاب هذه الدعوى لم يقيموا دليلاً واحداً لدعواهم، والحقيقة أن دعواهم آتية من كثرة تساهل العلماء في هذا المجال وعدم ضبطهم لمفهوم هذا العلم، وترك الثغرات مفتوحة استغلت فيما بعد لإلقاء الاتهامات، والغرض هنا من هذا البحث الوقوف على حقيقة أسباب النزول ومفهومها، والحكمة من تدرج التنزيل، وأسباب التساهل ومظاهره، وبواعث الطعن ونتائجه.

أولاً: حقيقة أسباب النزول

صحيح أن ثمة أخطاء حصلت في مؤلفات هذا الفن ولكنها غير مقصودة، تنم عن تساهل المؤلفين وخطئهم بين مفهوم واسع ساد عند الصحابة، ومفهوم آخر ارتضاه المؤلفون بعدهم، أضف إلى ذلك شغف بعضهم في جمع كل الروايات التي تعزى لهذا الفن، وإن كانت روايات تفسيرية لبعض الصحابة وبعضها اجتهد منهم، وما تميزت به هذه الروايات من تناقض وتقابل وتباين في رسم المشهد الواحد، على أنه لم يخل مؤلف في هذا الفن من الإشارة إلى الحذر والتحرز تجاه أسباب النزول، وأن لا تؤخذ على علامتها، بل يجب عرضها على القرآن نفسه، فما وافق القرآن أخذ به، وما عارض القرآن طرح⁽¹⁾.

ولم يقفوا عند هذا الحد وإنما تجاوزوه إلى نقد المرويات وتبيين صحيحها من سقيمها، وتحرير المفهوم من الالتباس، حتى غدا هذا العلم مشيدا على أركان ثابتة وأعمدة راسخة، ولكن من الهام جدا أن نتساءل التساؤلات الآتية:

ما هي المحطات التي قطعها هذا العلم لكي يصبح ناضجا مستقلا؟ وهل التجاوزات المرتكبة في جمعه وتأليفه ترقى إلى حد العمد، ومن ثم يمكن أن تتسلل فكرة الصناعة؟ وهل دعوى الصناعة لها ما يسوغها؟.

1. مسار التأليف في أسباب النزول

يرجع علم أسباب النزول إلى فترة تنزل الوحي على الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقد كان محل اهتمام كبير من قبل الصحابة -رضوان الله عليهم- لكونهم الشاهدين على التنزيل، والعارفين بمواقعه وأحوله، ومن ثم بلغتنا روايات تعزز هذا الجانب، كما كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يرشد أحيانا إلى سبب النزول، وبعد انقضاء الوحي بات الصحابة المصدر الوحيد لهذا العلم، وهو ما جعل التابعين وتابعيهم يجدون في طلبه منهم، وحفظه شفاهة حتى جاءت فترة التدوين في القرن الثاني الهجري، فتم تدوينه في معارف مختلفة أبرزها الحديث والتفسير والسير والمغازي، فتوزع عليها، وتعد مدونة الإمام محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ) من أضخم المدونات في التفسير، وأكثرها تناولا وشمولا في مجال الرواية لأسباب النزول⁽²⁾، وقد تميز عمله بالرصانة والإنقان، فلم يكن يعرض لكثير من الموضوعات، بل كان ينبه في مواضع كثيرة على وهن الروايات التي تبين ضعفها⁽³⁾.

أما عن منهجه في تناول أسباب النزول، فهو يوردها غالبا بعبارات مثل: «الآية نزلت في سبب»، «ونزل في سبب»⁽⁴⁾، وبعد هذه المدونة تسلفت أخبار النزول إلى كتب التفسير التي بعده، كأحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص (370هـ).

واستمر الأمر إلى القرن الخامس الهجري، حيث عرف منعرجا في مسار تاريخ هذا الفن تمثل في استقلاله، بعد ما كان طيلة الفترة الماضية مندرجا في كتب وعلوم شتى، ويعتبر كتاب (أسباب النزول) للواحي النيسابوري (ت: 468هـ) أول تأليف كامل أفرد لهذا العلم، وكان دافعه لهذا العمل هو شيوع وديوع الأخبار الموضوعية المنسوبة لهذا العلم، والرغبة في تنقيته منها، حتى لا تزعزع ثقة العلماء فيه، لكونه لا غنى لأحد

عنه في فهم آيات الأحكام، وهذا ما أشار إليه بقوله: «وأما اليوم فكل أحد يخترع شيئا ويختلق إفكا وكذبا ملقيا زمامه إلى الجهالة، غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب الآية، وذلك الذي حدا بي إلى إملاء هذا الكتاب الجامع للأسباب؛ لينتهي إليه طالبوا هذا الشأن والمتكلمون في نزول القرآن، فيعرفوا الصدق ويستغنوا عن التمويه والكذب، ويجدوا في تحفظه بعد السماع والطلب»⁽⁵⁾.

وما قام به الواحدي⁽⁶⁾ من جهد لم يرتق إلى مستوى الهم الذي حمله على عاتقه، وهو تأسيس علم جديد مستقل بذاته، فصنيعه يدل على عدم قدرته على تجاوز ما كتبه السابقون، فلم يستطع إلا أن يتأثر بهم - وخاصة الثعلبي والطبري - وأن يغرف من معينهم، فأغلب الروايات التي ساقها في كتابه هي موجودة في كتب شتى لأئمة التفسير كالسدي والكلبي ومقاتل والطبري وغيرهم، وأضاف إلى ذلك مصادر أخرى، مثل كتب الحديث والتاريخ والمغازي.

ومصادق ذلك ما ذكره بإسناد عقيل بن محمد الجرجاني، عن المعافى بن زكريا القاضي، عن محمد بن جرير في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾⁽⁷⁾ قال: ليس الذين يذهبون إليه، إنما هي أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: وكان عكرمة ينادي بهذا في السوق⁽⁸⁾.

وكان تركيز الواحدي في أغلب رواياته على ما يرويه عن شيخه الثعلبي، وهذا الأخير معروف بروايته للموضوعات، وهو ما جعل كتاب الواحدي مهلهلا وغير مرضي عند علماء الحديث والرواية، ولذا يقول ابن تيمية⁽⁹⁾: «فقد أجمع أهل العلم بالحديث أن الثعلبي يروي طائفة من الأحاديث الموضوعة، كالحديث الذي يرويه في أول كل سورة عن أبي إمامة في فضل تلك السورة، وكأمثال ذلك، ولهذا يقولون هو كحاطب ليل، وهكذا الواحدي تلميذه»⁽¹⁰⁾.

وما رسمه الواحدي في خطبة كتابه من منهج يتتبع الروايات ويمحصها، لم يكن موفقا في كثير منه على حد قول الحافظ ابن حجر⁽¹¹⁾، فقد وقع في أغلاط كثيرة عابها عليه غيره⁽¹²⁾، إضافة لعدم استيعابه لكثير من روايات أسباب النزول⁽¹³⁾، كما يعد مؤلفه متضمنا لجملة من الأغلاط المنهجية.

البعض التمس له العذر، بأنه لم يكن من فرسان هذا الميدان ولا من صبياناه، بل كان لغويا ماهرا، ولم يكن محدثا مؤرخا حازما، واستدلوا على ذلك بأدلة، منها ما ذكره الذهبي عنه أنه كان بارعا في اللغة⁽¹⁴⁾، ومنها أيضا خلطه في الرواية بين الصحيحة والسقيمة، وسوء فهمه لسبب النزول، والمطلقة التي تحدث بها وهي أن الآيات القرآنية كلها لها أسباب⁽¹⁵⁾، وهي أدلة فعلا تبعده من الريادة في هذا العلم، إلا أن عمله فتح الباب للآخرين ليساهموا في تقويمه وتصحيحه، فوجود شيء خير من لا شيء، وأرض وطئت خير من أرض لم توطأ، والعلماء البارعون قد يقدمون على هذا النوع من الأعمال فيضمنون كتهم الكثير من الروايات الصحيحة والسقيمة، ويأتوا بالغث والسمين، وتقديرهم أن عملهم سيقروءه من يفصل بين هذا وذاك.

وإذا كان الواحدي وكتابه المشتهر قد حصد هذا الكم الهائل من النقد، فإن ابن حجر (ت: 852هـ) قام بعمل تقويي له، وعمل على فرز الروايات الصحيحة من الروايات الضعيفة، وذلك في كتابه العجائب في بيان الأسباب، وعمله وإن لم يكتمل إلا أنه من أجود ما دون في هذا الفن، وتبعه السيوطي⁽¹⁶⁾ بكتابه "لباب النقول في أسباب النزول"، وبذل جهدا عظيما فيه، ثم تلا ذلك جملة من الأعمال مثل كتاب "الصحيح المسند من أسباب النزول" لمقبل بن هادي الوادعي، إلى غير ذلك، وقد جاء الباحث المحقق لكتاب ابن حجر السابق الذكر بلاتحة لأسماء الكتب المؤلفة في هذا الفن بلغت عنده ستا وعشرين كتابا⁽¹⁷⁾.

2. مفهوم سبب النزول

لا بد من تحديد معنى واحد ومفهوم واضح لأسباب النزول، حتى لا تختلط موارد اليقين والإثبات، ولا تتداخل الأدلة والردود، فعلم أسباب النزول دائر على كلمتين رئيسيتين هما السبب والنزول، ولذلك من المفيد التعرّيج على دلالة كل منهما، ودلالتهما مجتمعيتين، والتعويل في تحقيق ذلك سيكون على القرآن الكريم، وأقوال أهل العلم ممن تعرضوا له بالتمحيص والتدقيق.

أ- الدلالة اللغوية:

السبب يطلق في اللغة على كل ما يتوصل به إلى غيره، ومن ذلك إطلاق السبب على الطريق، وإطلاقه على الجبل، وعلى الوسيلة، وعلى المصاهرة، وكذلك كل ما تدرك به الحاجة أو يبلغ به الطلب يسمى سببا، وقد ورد في القرآن الكريم عدة مرات تارة

بصيغة الإفراد، وتارة بصيغة الجمع، قال الفخر الرازي في تفسيره: «أصل السبب في اللغة الحبل، قالوا: ولا يدعى الحبل سببا حتى ينزل ويصعد به، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾»⁽¹⁸⁾ ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها سبب. يقال: ما بيني وبينك سبب: أي رحم ومودة، وقيل للطريق: سبب؛ لأنك بسلوكه تصل الموضع الذي تريده، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾⁽¹⁹⁾ أي طريقا، وأسباب السموات: أبوابها؛ لأن الوصول إلى السماء يكون بدخولها، قال تعالى مخبرا عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَآمَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾⁽²⁰⁾ قال زهير: ومن هاب أسباب المنايا تناله ولو رام أسباب السماء بسلم

والمودة بين القوم تسمى سببا؛ لأنهم بها يتواصلون»⁽²¹⁾.

أما النزول فهو الانتقال من أعلى إلى أسفل⁽²²⁾ وقد يراد به الحلول بالمكان⁽²³⁾.

ب- الدلالة الاصطلاحية:

إن الظاهر من كلمة "سبب" هو العلة الموجبة، ولو التزمنا بهذا المعنى فإن ذلك يقتضي حصر موضوع "أسباب النزول" بما كان علة لنزول الآية؛ أي نزلت لأجله، وهذا الظاهر بعيد عن قصد علماء القرآن على الأقل في القرون الأولى؛ لسبب كونه مفهوما منطقيا طارئا بعدهم⁽²⁴⁾، وعلى ذلك فلا بد من حمل كلمة "سبب" على معناها اللغوي، وهو ما يتوصل به إلى الأمر⁽²⁵⁾.

وعلى هذا المعنى فسبب النزول هو كل ما يتصل بالآية من القضايا والحوادث والشؤون، سواء كانت علة نزلت الآية من أجلها أم لم يكن كذلك، بل ارتبطت بالنزول ولو بنحو الظرفية المكانية أو الزمانية أو الاقتران أو ما شابه⁽²⁶⁾.

فهي مناسبات عرضية تجسد الفهم العملي للقرآن، وتنسج شبكة التواصل بين عالم الملموك وعالم الظواهر، ثم إن أسباب النزول ليست محددات لنزول القرآن، وإنما هي مراجع ونقاط استدلال وفهم وتحايط مع بعض سياقات القرآن فينزل في ثناياها بقصد التفهم⁽²⁷⁾.

وقد عرف سبب النزول بعدة تعريفات، بعضها قاصر وبعضها شامل، ونختار منها تعريف السيوطي الذي عرفه بأنه: ما نزلت الآية أيام وقوعه، حيث يقول: «والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح وعاد وشمود وبناء البيت ونحو ذلك، وكذلك ذكره في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾⁽²⁸⁾ سبب اتخاذه خليلاً، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى»⁽²⁹⁾.

فسبب النزول إذن ما كان الحدث فيه نابعا من البيئة والزمان اللذين وقع فيهما الحدث، وقد يكون سبب النزول سؤالاً مذكورا في الآية، ويمكن أن لا يكون، فقد قتل المسلمون بعض المشركين في سرية أول شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، وذلك لعدم علمهم بدخول الشهر، فعاب المشركون ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزِدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽³⁰⁾، وسأل بعض الصحابة عن الهلال ما باله يبدو صغيرا ثم يكبر ثم يصغر كما بدأ، فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽³¹⁾، ومن ذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يجامعوها في بيت ولم يأكلوها في إناء فأنزل الله قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽³²⁾، وحرم فرجها وأحل ما سوى ذلك⁽³³⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشائع في الاستعمال، والدارج في الاصطلاح هو أسباب النزول، مع أن القرآن الكريم لم يقع فيه لفظ النزول، وإنما استعمل لفظ التنزيل، وهناك فرق في المعنى للفظ النزول ولفظ التنزيل المرتبطين بالقرآن الكريم، أما معنى النزول المرتبط بالقرآن فيشير إلى نزوله مفرقا منجما حسب الوقائع، وأما التنزيل

فهو عملية مستمرة يدخل فيها وسائل فهم النصوص وتفسيرها، وإلحاق الوقائع والأحكام بمقتضيات النصوص، يقول الدكتور الحجوي⁽³⁴⁾: «إن القرآن نزل نزولاً وتزيلاً. أما النزول فقد تم بموته. وأما التنزيل على الوقائع واستنباط الأحكام، فلم يزل إلى آخر الدهر، فسورة البقرة وحدها مشتملة على ألف أمر وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر، ولعظيم فقهها أقام ابن عمر في تعلمها ثمان سنين. فما من أحد يتدبره إلا ويظن أنه المخاطب به، وعليه تنزل أحكامه وإشاراته.

فالنزول يؤشر على الصبغة الإلهية التي اكتمل بموجها النص القرآني في معالم الأزل، أي أن القرآن ينزل من عند الله وبأمر منه، وأما التنزيل فيشير إلى حضور الغيب في حياة الناس بطرائق (منهجية) يستشرف النص من خلالها المستقبل البشري تحايثاً مع الأفراد المتلقين في مواقعهم ومعايشهم داخل المألوف اليومي»⁽³⁵⁾.

3. أسرار التنجيم:

لم ينزل القرآن الكريم دفعة واحدة كما كان يحصل مع الكتب السابقة⁽³⁶⁾، بل امتد لفترة من الزمن تقارب ربع القرن، بمعنى أن نزوله كان على أنجم وفترات متعددة، والذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة، خمس آيات، وعشر آيات، وأكثر وأقل، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول عشر آيات في أول المؤمنين جملة، وصح نزول: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ⁽³⁷⁾ وحدها وهي بعض آية⁽³⁸⁾،⁽³⁹⁾

ولكن سر التنجيم سأل عنه اليهود أو المشركون، وأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾⁽⁴⁰⁾، يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم الله بقوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ أي أنزلناه كذلك مفرقا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾⁽⁴¹⁾ وهذا التثبيت فسر بعدة تفسيرات، كلها تراعي حال النبي -صلى الله عليه وسلم- المنزل عليه، أحدها: أن تجدد الوحي في كل حادثة، فيه عناية بقلب المرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز، فحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة.

كما كان التفسير الآخر فيه مراعاة لواقع العرب في ذلك الزمان، والنبي -صلى الله عليه وسلم- على الخصوص، فهو كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ففرق عليه ليعسر عليه حفظه بخلاف غيره من الأنبياء، فإنه كان كاتباً قارئاً فيمكنه حفظ الجميع إذا نزل جملة.

قال الزركشي فإن قلت: كان في القدرة إذا نزل جملة أن يحفظه النبي -صلى الله عليه وسلم- دفعة قلت: ليس كل ممكن لازم الوقوع، وأيضاً في القرآن أجوبة عن أسئلة، فهو سبب من أسباب تفرق النزول؛ ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفزقاً⁽⁴²⁾.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل التنجيم جاء مراعاة لواقع وأسباب معينة؟ والجواب أن النص يحكم الواقع وليس العكس، وليست فترة التنجيم إلا مجرد سياق زمني نزل فيه الوحي قصد الإفهام، وقصد التمكين له، وما ذكره الزركشي⁽⁴³⁾ من أن ليس كل ممكن لا زم الوقوع، وأن القرآن فيه أجوبة وأسئلة، وأن هذا هو الذي أدى التنجيم، لا يفهم من كلامه -كما فهم نصر حامد أبو زيد- أنه اعتراف جزئي بمراعاة الوحي للواقع ومسايرته لقوانين العالم، وأن فيه مقارنة للإحساس بجذلية العلاقة بين النص والواقع⁽⁴⁴⁾، وهي فكرة بعيدة عن تصور علمائنا الأجلاء؛ لأنها من بنات فكره الغربي المادي.

ولنعود إلى الآية الكريمة، فقد استفيد منها أيضاً معرفة الناسخ والمنسوخ⁽⁴⁵⁾، كما استفيد منها الإجابة على المتسائلين، فالنص القرآني فيه بعض الأسئلة والأجوبة، هذا ما استفيد من الآية ومن القرآن، لكن يبقى مجال الاجتهاد مفتوحاً أمام المجتهدين ليكتشفوا أسراراً وعللاً للتنجيم، وعلى هذا أفاض علينا علماؤنا بجملة من تلك الأسرار، المستفادة من أسرار التنجيم، منها ما ذكره الطاهر بن عاشور، وهو أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين⁽⁴⁶⁾.

ومنها ما ذكره الباحث الدكتور صبيح الصالح من تجاوب الوحي مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتجاوبه مع المؤمنين⁽⁴⁷⁾، كما يضيف آخر كتابة التاريخ؛ لأن القرآن كما يبدو من منهجيته الاستقرائية يريد كتابة التأريخ الإنساني، بكل ما في هذا التأريخ من

مفارقات وأحداث ونوازع وتطورات، وهذه الكتابة تأتي وفقاً لمنهج القرآن في الإيمان والهداية⁽⁴⁸⁾.

وإذا كان النزول المنجم يؤكد مصداقية القرآن، وانتمائه لله عز وجل، فإنه في نفس الوقت يبرز النموذج الأوضح لمنهجية تطبيق النصوص على الواقع، واستشراف المستقبل للمجتمعات البشرية كافة، فالنص القرآني انتقل بهذا المعنى من عالم الغيب إلى عالم الواقع والمشاهدة، وثمة فرق شاسع بين هذين العالمين، فإذا اقتنع الناس بمصداقية النص، ومن ثم تعاملوا معه بذلك المنطق، فإن ثمة حيثيات يجب أن تراعى قبل الخوض في تبعات هذا الإيمان، وهذه الحيثيات هي واقع الناس وجبلتهم التي نضجوا عليها وترعرعوا داخلها، من هنا كان النص حاسماً وقاطعاً في ترتيب النزول وتنجيته حتى يضع الحل الناصع والصحيح، وهذا كله يستفاد من كلام عائشة -رضي الله عنها- حين قالت: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء "لا تشربوا الخمر" لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل "لا تنزوا" لقالوا لا ندع الزنا أبداً"⁽⁴⁹⁾.

وهذا الذي قصده عائشة -رضي الله عنها- هو ذات المعنى المتحدث عنه، فالشارع تدرج في إنزال آيات الأحكام بحيث مهد لها بآيات العقائد، ثم أتبعها بها، ولكن في الوقت نفسه راعى الوقت المناسب لتطبيق الحكم؛ لأن النص القرآني قطعي، وتطبيقه فوري لا يمكن تأجيله، ومن ثم فإن النزول كان يتأجل لحين اكتمال شروط التنزيل، فهناك تلازم بين النزول والتنزيل، بحيث لا يقع الأول حتى تتهيأ ظروف الثاني وتتأسس، وحينها يأتي النزول ليحسم الأمر.

ومن ذلك ما فعله عمر -رضي الله عنه- عام الرمادة حين أوقف العمل بحد السرقة وأجل قبض الزكاة، وكذلك إلغاؤه لسهم المؤلفة قلوبهم، كل هذه الاجتهادات بنيت على أساس الواقع، وروعت فيها شروط تطبيق النصوص، وكان له السبق في ملاحظة هذا المعنى رضي الله عنه.

فالقصد من نزول آية أو آيات من الأحكام، هو التطبيق والتنزيل على الواقع المعيش، ومن ثم بعث رسالة إلى المتأولين للنص والمفسرين له أن هذه هي الطريقة في تطبيق الأحكام، وهذه هي المنهجية المؤدية إلى نفاذ النص إلى قلوب المؤمنين، وترسيخ الإيمان به

ثانيا: بواعث الطعن في أسباب النزول

وهي بواعث يعبر عنها في جملة من الانتقادات موجبة لمنهجية التأليف في أسباب النزول، كالتساهل في جمع الروايات، وعدم وضعها على منهاج واضح، ومسلك مستنير، إضافة لعدم ضبط مفهوم سبب النزول، ومعرفة سر التنجيم، وهذه الاتهامات والانتقادات تتركز على اتهامين رئيسيين هما:

(1) جمع الروايات دون تمحيص وتدقيق

شجنت كتب أسباب النزول والتفسير، بأخبار ضعيفة ووقائع موضوعة، وقصص واهية، وأقوال سقيمة غير لائقة، ولأجل هذا قال الإمام أحمد بن حنبل: «ثلاث علوم لا إسناد لها، وفي لفظ ليس لها أصل: التفسير، والمغازي، والملاحم»⁽⁵⁰⁾. قال الخطيب البغدادي⁽⁵¹⁾: «ولا أعلم في التفسير كتابا مصنفا سلم من علة فيه أو عري من مطعن عليه»⁽⁵²⁾.

وسبب هذا عدم التمحيص للروايات والتدقيق فيها وتمييز الصحيح والسقيم منها، قال ابن خلدون: «وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد»⁽⁵³⁾.

وبرهان هذا ما ورد في كثير من كتب التفسير من روايات في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ وخلاصتها أن هم يوسف بلغ منه أنه تصرف تصرفا مربيا⁽⁵⁴⁾، وقد أورد بعض المفسرين هذه الروايات وأيدها، وصرف بعض التفسيرات المعارضة لها، ومن ذلك قول البغوي⁽⁵⁵⁾، بعد أن ذكر الروايات التي ذكرنا مضمونها أنفا: «وهذا قول أكثر المتقدمين... والقول ما قال متقدموا هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله من أن يقولوا في الأنبياء من غير علم»⁽⁵⁶⁾.

إلا أن الإمام الرازي⁽⁵⁷⁾ تنبه لهذه الروايات فردها ونقضها، وذب عن براءة يوسف -عليه السلام- من العمل الباطل والهم المحرم⁽⁵⁸⁾.

وأمثال هذه الروايات كثير في كتب التفسير، وأسباب النزول، مثل حديث علي الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم، ومثل ما روي في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾⁽⁵⁹⁾ أنه علي ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾⁽⁶⁰⁾ أذنك يا علي⁽⁶¹⁾.

ولهذا أكد علماء القرآن على أن علم أسباب النزول لا طريق لمعرفته إلا النقل الصحيح، يقول السيوطي: «قد تقرر في علوم الحديث أن سبب النزول حكمه حكم الحديث المرفوع، لا يقبل منه إلا الصحيح المتصل الإسناد، لا ضعيف ولا مقطوع»⁽⁶²⁾، ولا يكتفى بمجرد الرواية والسماع، بل لا بد من اشتراط الصحة؛ ولهذا انتقد ابن حجر⁽⁶³⁾ على الواحدي قوله: «لا يحل القول في أسباب الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب»⁽⁶⁴⁾، حيث لم يقيد ذلك بالصحة، وإنما اكتفى بذكر الرواية والسماع، وهذا يعني جمع الروايات دون تمحيص وتدقيق، وهو أمر وقع فيه كثير ممن كتبوا في العلم بمن فهم الواحدي وابن إسحاق⁽⁶⁵⁾.

والواقدي⁽⁶⁶⁾ والكلبي، فخلطوا في مروياتهم بين الصحيح والسقيم، بين المتسق مع النص والمتنافر معه، فهناك التناقض الكثير في بعض الروايات، وهناك القصص الخرافي في جانب منه، وهناك الإسرائيلية المطولة التي لا يحتملها النص القرآني.

قال ابن تيمية: «ومعلوم أن في "كتب التفسير" من النقل عن ابن عباس من الكذب شيئا كثيرا من رواية الكلبي عن أبي صالح وغيره، فلا بد من تصحيح النقل لتقوم الحجة فلتراجع "كتب التفسير" التي يحزر فيها النقل، مثل تفسير محمد بن جرير الطبري الذي ينقل فيه كلام السلف بالإسناد، وليعرض عن تفسير مقاتل والكلبي...»⁽⁶⁷⁾.

كما حذر الدهلوي⁽⁶⁸⁾ من إفراطهم في ذكرهم تحت كل آية قصة مع أن الكثير منها غير صحيح عند المحدثين وفي إسناده نظر، ودعا إلى الاختصار على الروايات الصحيحة الواردة في كتاب البخاري والترمذي والحاكم فقط⁽⁶⁹⁾.

أما ابن حجر فعمل على تصحيح الروايات بعدما أدرك خلط الأقدمين بين الروايات الصحيحة وغيرها، وأثر أن يسلك طريق التتبع والتوثق من صحتها أو حسنها أو ضعفها، إلا أنه لم يكمل كتابه.

(2) عدم تحديد المصطلح تحديدا دقيقا

إن تحديد مصطلح أسباب النزول له إسهام كبير في فهم الموضوع، ولذلك جنح المتأخرون إلى وضع مصطلح حسب فهمهم لهذا العلم دون ملاحظة كل المعاني التي كان يدل عليها عند الصحابة، ولهذا وقع الخلط في بعض المرويات عندهم، نظرا لاختلاف المفهوم، فأصبح ما لا يوجي بالسبب يسمى سببا، وقد يطلق في هذا المضمار السبب على اللازم والمتعلق، وهو غير السبب، وقد يطلق السبب على ما يعتبر من باب الجري وقبيل الانطباق وليس من الأسباب⁽⁷⁰⁾.

وهذا راجع إلى أن الصحابة يفهمون السبب بمعناه اللغوي، وهو ما يتوصل به إلى الشيء، وعلى ذلك فكل لفظ يؤدي إلى معنى في الآية فهو مقصود، سواء كان سبب نزول الآية أو كان تفسيرا للآية، أو كان ذكرا لقصة الآية، أو كان تنزيلا للآية على الواقع، ولكن عندما جاء المتأخرون قالوا: سبب النزول هو «ما نزل قرآن بشأنه أيام وقوعه»⁽⁷¹⁾، وقعوا في مغالطات كلها ناشئة عن عدم مراعاتهم لشمولية مصطلح الصحابة والتابعين المتسع، فطفقوا يبحثون عن الألفاظ الداخلة في مصطلحهم، فما إن وجدوا قول الصحابي: "حدث كذا فأنزل الله كذا"، أو قوله: "نزلت هذه الآية في فلان أو في فلان"، حتى يقولوا: هذا سبب النزول، ويغضون الطرف عن مفهوم قول الصحابي، وهذا جعل بعض العلماء يشير إلى ذلك ويضع ضابطا لذلك⁽⁷²⁾.

وهذه النظرة السريعة على مجمل ما وجه من انتقادات تعطينا نتائج، وتقنعنا باقتناعات هامة، أما النتائج فهي:

أولاً: أن الأعمال المشيدة في هذا المجال ارتكبت فيها أخطاء رجعت أساسا إلى جملة من الأسباب تركزت على التساهل في نقل الأخبار، وعدم التمييز بين الصحيح منها من السقيم، وعدم وضوح مصطلح أسباب النزول عند المؤلفين، مما جعل كثيرا من المفاهيم تختلط معه.

ثانياً: أن ما قام من جهد تألّفي يرجع للقرون الأولى تعرض للنقد فيما بعد وصحح وقوم، فانتزع الكثير من الروايات الضعيفة من كتب المتأخرين، ونقد الخلط الحاصل في المفهوم، وحدد تحديداً علمياً دقيقاً.

ثالثاً: من خلال القراءة في تراث أسباب النزول لا نلاحظ صناعة الأخبار ولا نسج الأكاذيب، ولا مانع من تسرب بعض الأخبار الكاذبة والمختلقة إلى كتب المؤلفين ما دام التساهل طاغياً عليهم، والمفهوم ملتبساً، وهذا ليس من عملهم.

أما الاقتناعات فهي:

الاقتناع الأول: أن تكوّن هذا العلم وتشكله كان نتيجة جهد جهيد عمله السابقون في ملاحقة الروايات التي يعتقد أنها تهتم بواقع التنزيل، وترسم حالة الناس في زمنه، وتعطي فكرة عن تنزل بعض الآيات القرآنية التي قد تساعد في فهمها، وهذا الأمر تم وسط ثقافة تعلي من شأن الرواية وتهتم بصحتها ونسبتها، وهذا يدحض ما ذكره الباحث بسام الجمل⁽⁷³⁾ في كتابه: "أسباب النزول علماً من علوم القرآن" من أن تشكل هذا العلم وتكونه كان نتيجة عامل ثقافي حيث يضيف شارحاً ذلك، «أما بخصوص العامل الثقافي: فإنه راجع إلى التغير العميق الذي أصاب الوضع الثقافي بعد انقطاع الوحي المحمدي»⁽⁷⁴⁾، وفي نظره أن هذا الانقطاع أدى إلى محاولة العلماء عقد صلة بين آيات المصحف وما شاع من أخبار سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومغازيه انطلاقاً من مجالس القصص والإخباريين، فأعادوا بناء علاقة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالوحي، خاصة لحظة تقبله التنزيل، وهذه العلاقة لا تعكس الأخبار الصحيحة عن الوحي في زمنه، بقدر ما تعكس تمثيلهم الخاص له، «وكان للقصص دور كبير في نشأة هذا العلم نظراً لمنزلتهم الرفيعة في المجتمع خصوصاً عند العامة: وعلة ذلك رغبة هؤلاء القصص والإخباريين في عطف قلوب الجمهور الذي يتوجهون إليه على تمييز التجربة النبوية، وبدهي أن ينسجم أسلوب خطابهم مع انتظارات المتقبلين، وهم أساساً العامة»⁽⁷⁵⁾.

وفي الإطار نفسه يتساءل الشرفي، هل كان نزول الآية لهذه المناسبات من قبيل القصص التي نسجها المخيال الجمعي في حرصه على ربط الأحكام الفقهية المجردة بأحداث ملموسة وأشخاص تاريخيين، حسب ما كان يفعله القصص والوعاظ

المدفوعون بوازع تقريب النص المقدس من الأذهان أكثر من احتفائهم بالحقيقة التاريخية كما نفهمها اليوم؟⁽⁷⁶⁾.

حقيقة ما أسماه العامل الثقافي لا يصف ثقافة المسلمين، فالفترة التي تحدث عنها كانت مليئة بالعلماء الثقاة، وعلمهم موثق من الصحابة والتابعين، والقصص لهم إسهام في القصص وليس في نشأة وتكون علم أسباب النزول، فأسباب النزول فيها روايات صحيحة نقلت إلينا من ثقاة ودونت فيما بعد في كتب السنن والصحاح، وبعضها الآخر بقي ضمن السير والمغازي فدون معها، وكثير من هذه الأسباب نقل إلينا بواسطة الثقاة العدول الضباطين عن الصحابة -رضوان الله عليهم- و أهل السير والمغازي لم يتمثلوا واقع الوحي إلا بما نقلوا عمن شاهدوه، وليس ثمة انقطاع كما يدعي، فكل ادعاءاته تحتاج إلى براهين.

وهو في ادعاءاته يتصور واقعا غير واقع المسلمين، وبيئة غير بيئتهم، ويمارس في ما يبدو فكرة الإسقاط، فالمسلمون لم يبنوا أيا من علومهم على القصص ونسج الخيال الجمعي، وإنما عرفوا بالرواية والتثبت في النقل.

وما قدمناه من تتبع علماء القرآن للروايات الباطلة، وردهم لها، ودعوتهم لتنقية كتب التفسير منها، لا يدل إلا على حرصهم على الدقة في الرواية والصحة في النقل.

الاقتناع الثاني: أن اهتمام هؤلاء العلماء بهذا الفن كان نتيجة لأهميته البالغة، ودوره الحاسم في تحديد تاريخ النزول، ومن ثم معرفة الناسخ والمنسوخ، ومعرفة المكي والمدني، وحيثيات النزول بأكملها، وهذا الإقناع جعل البحث يتجه إلى أسباب النزول، والعمل على تدوين كل الروايات المنسوبة له، فبقدر معرفة الفقيه لهذه الأسباب بقدر ما تكامل عنده الوعي بالآية، وهذا أمر في غاية الأهمية.

وهذا يبطل صحة ما ادعاه الباحث بسام من أن انتقال الناس من التدين العفوي إلى التدين المعقلن لزم منه الاعتماد على النظر والتفكير، ومن ثم لجأ الفقهاء إلى تسوية الأحكام وإنشاء التشريعات بما يخدم مصالحهم، وهذا ما سماه العامل الثاني في تكون علم أسباب النزول وهو العامل المعرفي، حيث يقول: «أما العامل المعرفي الذي ساهم في نشأة علم أسباب النزول فيبدو في شكلين هما:

الانتقال من طور التدين العفوي إلى التدين المعقلن، فلازم الثاني النظر، وكان هذا النظر حسب تصويره في شيء اندثر، وهو تاريخ النزول وأسبابه، مما أدى إلى اهتمام العلماء به، والحرص على معرفته.

أما الشكل الثاني: فهو حاجة الفقهاء إلى الترجيح بين الأحكام المتعارضة في النص الديني، فاستندوا من بين ما استندوا عليه النسخ، وهو يحتم معرفة تاريخ النزول وأسبابه⁽⁷⁷⁾.

وفي نظره أن هذا العامل أبرز تصدر رجال دين استأثروا بحق معرفة النص الديني وفهم مراد الله منه، وهم لا يعنهم سوى اعتباراتهم السياسية والاجتماعية؛ لأنها مقدمة على المقتضيات الدينية⁽⁷⁸⁾.

يقول مسترسلا في دعواه: «وتبرز الحاجة أكثر إلى معرفة أسباب النزول في آيات الأحكام عبادات ومعاملات، حتى يتكئ عليها الفقهاء على معيار مرجح يبنونه بواسطة منظومتهم الفقهية، ومن ثم يضعون عليها المشروعية الدينية⁽⁷⁹⁾».

ولا شك أن أخبار أسباب النزول تشير -من منظور معين- إلى تلك المساءلات والمشاكل والأوضاع التي تراعي أكثر ما تراعي انتماءات المفسرين الفقهية، ويعكس هذا المنظور أفاقهم الذهنية، ولذلك وظف علم أسباب النزول في توجيه معاني القرآن الكريم، قصد تأكيد صحة فهمهم له، فمهما حاول أهل الفقه والشريعة الاحتجاج على فهم لهذا النص الديني الفذ بقرائن مثل أسباب النزول وغيرها، فإنما كانوا يبحثون في الواقع عن سلطة بها يشرعون لفهم ذلك، ولا أدل على ذلك من توظيفهم لأسباب النزول التي قررت لتركب فهما للآيات، والواقع أن أسباب النزول تأطير بعدي للنص القرآني، ولا يخفى ما في هذه البعدية من عمل للذاكرة الجمعية والضمير الإسلامي⁽⁸⁰⁾.

الدافع الحقيقي للعلماء القدامى كما وصفهم هو فهم الآيات التي تحتاج إلى أسباب نزول توضيحها، واستخلاص الحكم المراد من النص، فهم عباد الله وهو سيدهم ومعاذ الله أن تكون لهم أغراض كما وصفهم، فهم شارحون وموضحون لا مشرعون متألهون، فتلك صفة المحرفين الضالين، ورجال الدين المرتشين.

فعلماؤنا عرفوا بالصدق والأمانة، وبالابتعاد عن مغريات المادة وطغيانها، فهم ليسوا كرجال القانون كما أحب أن يصفهم، فالشريعة ليست وضعا منهم، ولا خطأ

خطوه بأيمانهم، وإنما هي تشريع من الله، وإسهام هؤلاء بما يمتلكون من قدرات الفهم والتدبر أن يمعنوا التفكير ويخرجوا الحكم بتبيان كيفية تنزيله على الواقع. وكان الأحرى به أن يعطينا حكما واحدا استند فيه فقيه معتبر لسبب يحقق فيه مصلحة له ذاتية أو جماعية ضيقة.

الاقتناع الثالث: أن معرفة أسباب النزول كانت الفصيل في تحصين الفهم للنص القرآني من الغلط والأوهام، والاهتداء إلى التأويل الصحيح، وهذا يقال في التأويل المستند على سبب صحيح رواية ودراية، وإلا فهو كمستنده خاطئ، وليست كما فهم بسام الجمل أن تعدد الإيديولوجيات ساهم في تشكلها، وهو ما يعده العامل الثالث والأخير؛ لأنه تقدم عندنا العامل الثقافي والعامل المعرفي، وأما العامل الإيديولوجي فيتمثل عنده في الصراعات التي وقعت بين المسلمين على السلطة، وافتراقهم إلى فرق متنازعة، «حولت النص الديني إلى وسيلة رد على المخالف، وكان توجيه النص يحتاج إلى مادة من خارجه تسلط عليه بعيدا عن سياقه ومقتضاه ومقصده، فوجد أصحاب الفرق مبتغاهم، فنشأ علم أسباب النزول»⁽⁸¹⁾.

أما الهادي الجطلاوي: «فهو يرى أن أسباب النزول -كما لا يخفى- عنصر من عناصر التفسير لا يستأثر به منهج دون آخر، وهو سلاح في غاية الخطورة، يمكن أن ينفخ بالمعنى في جميع الاتجاهات، فكان من أكبر الذرائع التي توسلت بها الفرق لتوجيه الدلالة في خدمة المذهب دفاعا عن النفس، وطعنا في الغير، ولم يكن ذلك يكلف من العناء سوى تهيئة السند الصحيح الموهوم بصحة الخبر»⁽⁸²⁾.

الإيديولوجيات وظفت أسباب النزول -وإن كان على نطاق ضيق- لكنها لم تساهم في تشكلها، والأسباب التي وظفت في تغليب الحجة أو الرد على الخصم قليلة مشهورة، والعلماء بينها، ولا أرى مساهمة لها في هذا الباب، إلا إذا قصد التأويل غير البريء الذي يمارسه أصحاب المذاهب المدينة للهوى والشطط للنص القرآني حتى يتماشى مع أطروحاتهم، وأراد من خلال ذلك القصد أن يسقطه على علماء ربانيين غارقين في الإيمان والخضوع، وهنا بالطبع نقول هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟.

الاقتناع الرابع: أن مادة أسباب النزول ليست مصنوعة ولا مبتكرة، وإنما هي روايات تمتد جذورها لعهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وقد جمعت من كتب

الحديث الصحيحة والسير والمغازي وغير ذلك، ولا يعني هذا أن كل هذه المادة صحيحة معتبرة، بل كثير منها بين النقاد فساده لاعتبارات عدة: منها اعتبار الضعف في الرواية، واعتبار تناقضه مع مقاصد الشريعة، واعتبار آخر وهو عدم موافقته للسياق⁽⁸³⁾، وهي اعتبارات أسقطت الكثير من الروايات، وأبقت على القليل المقبول رواية ودراية.

ونخلص إلى أن أسباب النزول علم من علوم القرآن الكريم يعتمد فيه على ما صح من الرواية، وهو موجود في كتبه المستقلة وكتب الصحاح والسنن والسير والتفسير، وينظر في إسقاطه وإبعاده بنظر الصحة في الرواية وموافقة مقصد القرآن، فما كان كذلك اعتبر من علم أسباب النزول وهو موجود، وما كان على خلاف ذلك اعتبر من الباطل والخرافة، وعليه فإن ما ادعاه بسام الجمل من أن أسباب النزول مختلقة مصنوعة لا دليل عليه سوى بعض التشكيكات المنبعثة من هنا وهناك، مع غياب -كما يعترف بذلك هو نفسه- استدلال واضح المعالم والمسالك، وإن كان اعتذر عن ذلك بأن قضايا علم أسباب النزول لم تكن مطلبهم الرئيس فيما ألفوا⁽⁸⁴⁾، وما أقبحه من عذر، كيف لإنسان أن يتكلم في فن وهو غير مهتم به، ولا طالب له!؟

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
2. إتقان البرهان في علوم القرآن د. حسن عباس دار الفرقان ط1 1997م، عمان الأردن.
3. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، تحقيق: مجمع البحوث، 1333هـ/ 2011م.
4. أسباب النزول علما من علوم القرآن، بسام الجمل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
5. أسباب نزول القرآن الكريم، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت: 468هـ)، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 بتاريخ 1411هـ-1991م.
6. البرهان في علوم القرآن للزركشي (794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه. ط1، 1376 هـ - 1957 م.
7. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي سنة 1987، لبنان بيروت.
- تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى: 2005م.
8. تاريخ القرآن للدكتور محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت لبنان، بدون تاريخ.
9. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازي محمد الرازي فخر الدين دار الفكر للطباعة والنشر ط1 بتاريخ 1401.1981م بيروت لبنان.
10. تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار" لمحمد رشيد علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر 1990م.
11. جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري (ت: 310هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة ط1 بتاريخ 1420هـ 2000م.

12. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964 م.
13. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع الخطيب البغدادي (ت: 463هـ) تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، بدون تاريخ.
14. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر (852هـ)، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدرا باد- الهند، الطبعة الثانية 1392هـ - 1972م.
15. سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي (ت: 748هـ) تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة 1405هـ - 1985م.
16. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين – بيروت ط4 بتاريخ 1407 هـ - 1987م.
17. العجائب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي، السعودية الدمام ط1 بتاريخ 1418هـ، 1997م.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد الحجوي، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة 1396هـ.
18. الفوز الكبير في أصول التفسير، لأحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (ت: 1176هـ) عربي سلمان الحسيني الندوي، دار الصحوة القاهرة، الطبعة الثانية 1407هـ - 1986م.
19. لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد أبو الحسن المعروف بالخازن (ت: 741هـ)، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ.
20. لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت ط1.
21. مباحث في علوم القرآن الدكتور صبيح الصالح دار العلم للملايين، بيروت لبنان.
- مجلة التسامح العدد الحادي عشر، 1426هـ 2005م، وزارة الأوقاف سلطنة عمان.

22. مجموع الفتاوي، لابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ - 1995م.
23. معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء (البغوي (ت: 510هـ)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ.
- مفهوم النص نصر حامد أبو زيد الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1993م.
24. مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ط دار القرآن.
25. المقدمة لابن خلدون دار الكتب العلمية بيروت ط 1/1986م.
26. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس أحمد بن تيمية (ت: 728هـ)، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م.
27. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت: 681هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.

الهوامش

- (1) - تاريخ القرآن لمحمد حسين علي الصغير، ص(53).
- (2) - ينظر العجائب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني (203/1).
- (3) - جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (547/6).
- (4) - جامع البيان (547/6).
- (5) - أسباب النزول للواحيدي، ص (11).
- (6) - هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية، أبو الحسن الواحيدي: مفسر، عالم بالأدب، نعتة الذهبي بإمام علماء التأويل، له "البسيط" و "الوسيط" و "الوجيز" كلها في التفسير، توفي سنة: ثمان وستين وأربعمائة. طبقات المفسرين، للسيوطي، ص (78-79)، الأعلام: (255/4).
- (7) - سورة الأحزاب من الآية (33).
- (8) - أسباب النزول للواحيدي، ص (356).
- (9) - هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام، من تصانيفه: "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" والفتاوي وغير ذلك. توفي سنة: ثمان وعشرين وسبعمائة. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر (186/1)، الأعلام للزركلي (144/1).

- (10) - منهاج السنة، لابن تيمية، ص (12/7).
- (11) - هو أحمد بن علي بن محمد الكتاني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر: من أئمة العلم والتاريخ. أما تصانيفه فكثيرة جلييلة، منها: "فتح الباري على صحيح البخاري" و"الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة" توفي سنة: اثنين وخمسين وثمانمائة. طبقات الحفاظ للسيوطي (253-254/1)، الأعلام: (178/1).
- (12) - العجّاب في بيان الأسباب (200/1).
- (13) - نفسه.
- (14) - ذكر ذلك عنه الذهبي حيث وصفه كان من أئمة اللغة العربية تاريخ الإسلام للذهبي (259/31).
- (15) - مباحث في علوم القرآن الدكتور صبيح الصالح، ص: (137).
- (16) - هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب، من كتبه "الإتقان في علوم القرآن" و "ترجمان القرآن" وغير ذلك. توفي سنة إحدى عشر وتسعمائة. الأعلام: للزركلي (301/3).
- (17) - العجّاب في بيان الأسباب، (80-90/1).
- (18) - سورة الحج من الآية (15).
- (19) - سورة الكهف من الآية (85).
- (20) - سورة غافر من الآية (36).
- (21) - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (181/4).
- (22) - الصحاح للجوهري مادة (نزل).
- (23) - القاموس المحيط للفيروزبادي حرف النون والدال، ص (1372).
- (24) - تعريف السبب هو: «السبب هو ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم». ينظر أنوار البروق في أنواء الفروق للقرافي (342/4).
- (25) - لسان العرب لابن منظور مادة (سبب).
- (26) - تاريخ القرآن الكريم لعبد الصبور شاهين، ص (30).
- (27) - تحليل النصوص المفهوم والضوابط، لحسين كنوان، مجلة التسامح، ص (109).
- (28) - سورة النساء من الآية (125).
- (29) - الإتقان: (209/1).
- (30) - سورة البقرة من الآية (217).
- (31) - سورة البقرة من الآية (189).
- (32) - سورة البقرة من الآية (220).
- (33) - العجّاب (553/1).
- (34) - هو محمد بن الحسن بن العربي بن محمد الحجوي الثعالبي الجعفري الفلالي: من رجال العلم والحكم، من المالكية السلفية في المغرب. من أهل فاس، له كتب، أجلبها "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" توفي سنة: ست وسبعين وثلاثمائة. الأعلام للزركلي، (96/6).
- (35) - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، لمحمد الحجوي (106/1).
- (36) - يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (سورة الفرقان: 32)، وعلى الرغم من أن كثيرا من العلماء فهموا منها أن

سائر الكتب السابقة نزلت جملة واحدة، حتى كاد أن يكون إجماعاً، فقد أنكر ذلك بعضهم وقال إنه لا دليل عليه بل الصواب أنها نزلت مفرقة كالقرآن، ينظر الإتيان (281/1).

(37) - سورة النساء من الآية (95).

(38) - الإتيان: (226/1). مباحث في علوم القرآن، لصبي صالح، ص (49).

(39) - ورد نزول بعض الآية في موضعين اثنين: هذا أحدهما والثاني هو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: 186) حديث

البخاري (30) كتاب: الصوم (16) رقم الحديث (1917)، وقد نزلت في حديث البخاري، وأما الموضع الأول فقد نزل في ابن أم مكتوم حديث البخاري (65) كتاب تفسير القرآن (18) باب: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك

﴾ رقم (4592)، وقد أورد صاحب المنار هاتين الروایتين وردهما. يراجع تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد علي رضا (145/2).

(40) - سورة الفرقان من الآية (32).

(41) - سورة الفرقان من الآية (32).

(42) - البرهان في علوم القرآن (231/1).

(43) - هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقهاء الشافعية والأصول تركي الأصل، مصري المولد والوفاء. له تصنيفات كثيرة في عدة فنون، منها "البحر المحيط" في أصول الفقه، وغير ذلك. توفي سنة: أربع وتسعين وسبع مائة. الدرر الكامنة، (133-134/5).

(44) - ينظر مفهوم النص، ص (99).

(45) - ادعى الدكتور الجابري أن هذا لا يتماشى مع سياق الآيات المذكورة فهو شرح ما قبل بما بعد! ففضية النسخ لم تطرح في العهد المكي. ينظر مدخل إلى القرآن الكريم للجابري ص (145) وما ذكره عن النسخ لا يضيره.

(46) - التحرير والتنوير (50/1).

(47) - مباحث في علوم القرآن لصبي صالح ص (52).

(48) - وهو الدكتور الصغير ينظر تاريخ القرآن للصغير، ص (40).

(49) - صحيح البخاري (66) كتاب: فضائل القرآن، (6) باب: تأليف القرآن رقم الحديث (4993).

(50) - منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (35/7).

(51) - هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب: أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين. من كتبه: "الكفاية في علم الرواية" و"البخلاء"، توفي سنة: ثلاث وستين وأربع مائة. سير أعلام النبلاء، للذهبي (270/18).

(52) - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (163/2).

(53) - مقدمة ابن خلدون (10).

(54) - ينظر جامع البيان (35/16). لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (274/3).

(55) - الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنة، البغوي فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان، بين هراة ومرو. له (لباب التأويل في معالم التنزيل) في التفسير، و (مصابيح السنة) و (الجمع بين الصحيحين) وغير ذلك. توفي بمرور الروذ. سنة: عشر وخمسمائة. سير أعلام النبلاء (439/19).

- (56) - ينظر معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (448/4)، لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، (274/3).
- (57) - هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر، من تصانيفه "مفاتيح الغيب" في تفسير القرآن الكريم، و"معالم أصول الدين". توفي سنة: ست وستمئة. وفيات الأعيان، لابن خلكان (248-249/4).
- (58) - ينظر مفتاح الغيب أو التفسير الكبير (82/18). ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (199/9).
- (59) - سورة الرعد من الآية (7).
- (60) - سورة الحاقة من الآية (11).
- (61) - ينظر مقدمة التفسير، لابن تيمية (26/2).
- (62) - التحبير في علم التفسير للسيوطي، ص (86).
- (63) - العجاف ص (200).
- (64) - أسباب النزول للواحدي ص (10).
- (65) - محمد بن إسحاق بن يسار المطلي بالولاء، المدني: من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة. له "السيرة النبوية" هذها ابن هشام. و"كتاب الخلفاء" و"كتاب المبدأ"، توفي سنة: واحد وخمسين ومئة. وفيات الأعيان (276/4).
- (66) - هو محمد بن عمر بن واقد السهبي الاسلي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي: من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث. من كتبه "المغازي النبوية" و"فتح إفريقية" وغير ذلك، توفي سنة: سبع ومائتين. وفيات الأعيان (348/4).
- (67) - مجموع الفتاوي، لابن تيمية (389/13).
- (68) - هو أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي، أبو عبد العزيز، الملقب شاه ولي الله: فقيه حنفي من المحدثين. من كتبه "الفوز الكبير في أصول التفسير" ألفه بالفارسية، وترجم بعد وفاته إلى العربية والأردية ونشر بهما، "حجة الله البالغة" وغير ذلك. توفي سنة: تسع وسبعين ومئة وألف. الأعلام: للزركلي، (149/1).
- (69) - الفوز الكبير في أصول التفسير للدهلوي ص (60).
- (70) - ينظر تاريخ القرآن للصغير، ص (53).
- (71) - ينظر مقدمة في أصول التفسير، ص (60) والبرهان في علوم القرآن للزركشي (126/1) والإتقان (208/1).
- (72) - ينظر مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية ص (60) والإتقان (208/1).
- (73) - هو بسام الجمل دكتور باحث تونسي له عدة كتب، منها كتاب: أسباب النزول علما من علوم القرآن، وهو كتاب يتناول فيه أسباب النزول بنقد شديد يصل إلى حد التحامل على هذا العلم، وفي هذا البحث ألخص أهم معالم نظرتة لتكون وتشكل هذا العلم، على أن تكون ضمن نقاط الاقتناعات حسب ما يقابل كل شبهة من شبهة.
- (74) - أسباب النزول علما من علوم القرآن، بسام الجمل، ص (53).
- (75) - نفسه.
- (76) - نفسه، ص (33).
- (77) - أسباب النزول علما من علوم القرآن، ص (58).
- (78) - نفسه.
- (79) - نفسه، ص (59).
- (80) - نفسه، ص (34).
- (81) - أسباب النزول علما من علوم القرآن ص (59).
- (82) - نفسه، ص (34).

(83) - ينظر إتيقان البرهان في علوم القرآن د. حسن عباس، ص (316).

(84) - أسباب النزول علما من علوم القرآن، ص (34).